

# زنوبيا... أعظم ملكات التاريخ كله

بقلم: د. جورج يونان

شأنها وعظم، إلى أن وصلت إلى أوجها كعاصمة  
لأكبر إمبراطورية عربية في صدر الإسلام.

وقد سلّمت تلك القبائل بإمارة رجل قوي الشكيمة  
يُدعى أذينة ومنحته الثقة والدعم، فأصبح له النفوذ  
الحقيقي في تسيير القوافل التجارية عبر البادية  
السورية. وأذينة هذا كان له ولدان أحدهما خيران  
والثاني كان اسمه أيضاً أذينة الذي كان زوجاً للملكة  
زنوبيا. وكان أذينة الأب يجاهر بعدائه للروم ويريد  
طردهم من بلاده، مما حدى بهم إلى التآمر عليه وقتله  
في القرن الثالث الميلادي. وجاء أذينة الإبن ليحل  
محل أبيه وعاهد نفسه على أن ينتقم له، فجمع حوله  
القبائل العربية، وكان شاباً قوي العزيمة، قضى أيامه  
في مرابع هذه القبائل وفي الجبال يصطاد ويقتنص  
الحيوانات بناله. وقد مكنته شجاعته من كسب قلوب  
هذه القبائل وولائها. وقد جاء إلى المدينة وسعى في  
البدن إلى التحالف مع الفرس أعداء الرومان. إلا أن  
الفرس استهتروا بقوته وكانوا قد أسروا أحد أباطرة  
روما، الإمبراطور فاليريان عام ٢٦٠ م. ولكي يرد  
على هذه الإهانة، ويثبت قوته المستمدة من المجتمع  
الذي ترعرع فيه، واستقلاليته عمد إلى جمع رجاله  
خارجاً عليهم ومظهراً التحالف مع إمبراطور روما  
الجديد غالينوس. وغالينوس هذا، الذي كان يحاول  
أن يجمع قوى إمبراطوريته، كان بحاجة إلى أذينة،  
ومجانلة له أرسل له فرقة ضعيفة ضمها أذينة الإبن  
إلى رجاله، وإن لم تكن العنصر الفاعل في انتصاره  
على الفرس.

بعد انتصار أذينة، بادر غالينوس وسط تهليل الشعب  
وبمباركة مجلس الشيوخ إلى الاعتراف بجميل أذينة،  
والإشادة بشجاعته وانتصاراته وإلى خلع لقب  
أغسطس عليه عام ٢٦٢ م، وإسناد حكم المشرق كله  
إليه. وما كان أذينة في واقع الأمر في حاجة إلى  
اعتراف من روما بولايته على المشرق. فهو مع ما  
ساد الدولة الرومانية وقتها من ضعف وأباطرتها من  
خمول الهمة، كان يتمتع بالإستقلال أو ما يشبه  
الإستقلال عن روما، فتابع فتوحاته ليسترجع كل  
المستعمرات الرومانية في المشرق من الفرس ويضمها  
إلى إمارته ولقب بملك الملوك.

حيال هذا التوسع، شعرت روما بخطر أذينة، فدبرت  
له مؤامرة عن طريق ابن أخيه، وأغتالته في حادث  
غامض خلال احتفال في مدينة حمص. وقد قُتل معه

فإن الصيغة إسمية أصلها تدمرتا (الآرامية) أي العجب  
أو الدهشة ويتعير آخر: العجيبة، وكل ما حصل هنا  
هو إهمال نهاية التانيث الآرامية من هذه الصيغة  
واختصارها إلى تدمر. ويخص إلى القول: إن مدينة  
تدمر لجديرة بأن تسمى المدينة العجيبة، وهي التي  
كانت في تلك الأوقات مدينة فريدة من نوعها ترض  
في قلب البادية السورية حيث لا تزال آثارها اليوم  
تشهد على ذلك. (تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء  
الجغرافية السورية، ص ١٥٠-١٥١ منشورات بيسان).  
ليس واضحاً من بنى هذه المدينة، والروايات مختلفة،  
إلا أن ما هو متفق عليه هو أن هذه المدينة نشأت  
كواحة وكقرية صغيرة حول نبع صغير في قلب  
الصحراء. أول ذكر لها كان حوالي ١٨٠٠ ق. م. ثم  
ورد إسمها في وثائق الملك الآشوري تيغلات فيلاسر  
الأول. وابتداءً من القرن السادس الميلادي، فعلت تدمر  
ما فعلته بترا من قبل وما سيفعله النبي العربي فيما  
بعد بالإضافة إلى رسالته الروحية التوحيدية، وهو  
بناء المجتمع الأطلي الواحد وتأسيس الدولة التي تخدم  
المصالح المشتركة لهذا المجتمع. وكانت البداية، في  
الحالات الثلاث، جمع القبائل العربية حول هدف  
اقتصادي واحد، ألا وهو حماية القوافل التجارية بدل  
التسابق والتقاتل على مهاجمتها ونهبها، وبهذا العمل  
أصبح بالإمكان كسب ثقة هذه القوافل وتأمين الأمن  
والسلامة لها، فبدأت هذه القوافل التجارية تؤم تدمر  
للراحة وللتزود بمياه الشرب، وسرعان ما تحولت الطرق  
التجارية تدريجياً إليها، إذ أن الوجود التدمريين  
كانوا قد أعدوا فرقاً من الهجانة لحماية هذه القوافل،  
كما أنهم كانوا قد أخذوا تعهدات من شيوخ القبائل  
في البادية بعدم مواجهة هذه القوافل. وكانت القوافل  
تتبع في مسيرتها الطرق التجارية المعهودة والتي  
ذكرناها في العدد الماضي من "الحكيم" فالتفت من  
الحبشة واليمن كانت تأخذ الطريق الشمالية المحاذية  
للسواحل الشرقية للبحر الأحمر متجهة إلى بترا ومن  
هناك تنفرع في اتجاهات مختلفة أحدها تدمر ومن  
هناك تتطرق إلى العراق وما وراء حدوده. أما القوافل  
الآتية من الهند والصين فكانت تأتي في الإتجاه  
المعاكس فمن ميناء البصرة كانت تصعد مجرى دجلة  
لتمر على الساقين: الشرقية والغربية للمثلث، ماراً  
في تدمر ثم إلى البترا لتنتقل جنوباً متجهة إلى اليمن  
والحبشة. ونمت تلك الواحة تدمر وكبرت وأعتتت وزاد

مريون هم بدو الأراميين، من عمالقة العراق،  
رب البائدة، الذين كان منهم أيضاً الأنباط.

سنة تدمر هي قصة التحدي والرد. التحدي الذي  
يسقط بابل عام ٥٢٨ ق. م. وامتد إلى غزوة  
تندر المكدوني عام ٣٣٢ ق. م. والرد الذي حملته  
باتقها مدن كقرطاجة، وإنطاكية، وإسكندرونة،  
وتدمر، ومكة والمدينة، والبصرة، والكوفة،  
ق. م. وبيداد، ومدن الأندلس.

ككل حدود العراق في المشرق ومشارف الشام  
رب ساقاً مثلث، قاعدته الحدود الشمالية للجزيرة  
ع. م. هذا المثلث هو بادية الشام. وعلى رؤسه الثلاثة  
ثلاثة مراكز حضارية: بابل في الرأس الشرقي،  
في الغرب، وقد تكلمنا عنها في العدد السابق،  
في رأسه الشمالي.

لقد المثلث لم تكن إلا خطأً وهمياً عبر البادية  
بين بابل عبر الحيرة وبين بترا. لم يشكل هذا  
طريقاً تجارياً لأحد نظراً لوعورة مسالك البادية  
المرور فيها بسبب الجفاف. لهذا شكّلت الساق  
ية للمثلث الممتدة ما بين بابل وبين تدمر، عبر  
البادية، طريقاً للقوافل القادمة من العراق والمشرق،  
كانت تستريح في تدمر وتتزود بالماء والغذاء  
وتسير على طول الساق الغربية للمثلث باتجاه  
بترا. (جرجي زيدان. العرب قبل الإسلام،  
١١).

تدمر عن مدينة حمص حوالي مئة ميل شرقاً  
مدينة دمشق حوالي مئة وخمسين ميلاً شمالاً-  
إسمها العربي سامي الأصل Thadamora  
سماها اليوناني Palmyra فيعني مدينة النخيل.  
جدل بين المؤرخين عن أصل أسماء تدمر. يقول  
عبدالله الحلو: كان إسم هذه المدينة الشهبيرة  
البادية السورية أحد أكثر الأسماء التي شغلت  
بين سواء منهم العرب أو المستشرقين. وما زال  
مسألة يتناولها بعضهم بين الصين والآخر  
والتحليل دون الإقتناع بتفسير نهائي وأكد.  
هذا المضمار، ويعد أن يستعرض التفسيرات  
ية، والعربية، والآرامية، يورد الدكتور حلوتفسيراً  
يقول: ولو صرفنا النظر عن الإسم البياني لبقيت  
إمكانية الوحيدة المنطقية ألا وهي التفسير  
القواعد الإشتقاق الآرامية برد الإسم إلى الجذر  
الآرامي الذي يعني: عجبٌ وانداهش، وعليه

البكر وهو من زوجته الأولى غير زنوبيا. وتولى ش ابنه من زنوبيا " وهب اللات" أي بمعنى هبة لة اللات التي كانت آلهة عربية قبل الإسلام. وبما وهب اللات كان قاصراً فقد تولت زنوبيا إدارة من الدولة وكانت طموحة ، ولم ترث الحكم فقط لها ورثت كره أسلافها للدولة الرومانية التي كانت لها في اغتيال زوجها أذينة الإبن وحموها أذينة . وزادت من استعداداتها العسكرية ، وشنت حملات التي وسّعت بها إمبراطوريتها ، حتى أصبحت تضم سورية وشمال الجزيرة العربية ومصرية الصغرى. إلى أن روما سرعان ما عادت وشنت حرب على زنوبيا إلى أن قضت على مملكة تدمر بنت زنوبيا أسيرة إلى روما عام ٢٧٤ م.

هي زنوبيا؟

اسم زنوبيا الحقيقي هو بث زاباي Bath-Zabbay يعني ابنة العطية.

زنوبيا في الروايات العربية ( الأفاني للأصفهاني، شيخ الملوك للطبري، وياقوت الحموي) هي الزبابة عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي (من العمالقة) أذينة بن السميدع، صاحبة تدمر وملكة الشام زبيرة، وهي ملكة رومية تتكلم العربية، أمها يونانية زبيرة كلبياترا ملكة مصر، وليت تدمر بعد مقتل على يد جذيمة الأبرش. خلاصة القصة كما رواها المؤرخ جرجي زيدان في كتابه " العرب قبل الإسلام"، نقلاً عن الروايات العربية: "أنه كان لجذيمة إسمها رقاش، هويت شخصاً من أباد كان اسمه قد اصطنعه ( استخدمه) يقال له عدي، فوطأه حيلة دبراهما على جذيمة حتى أذن بزواجهما وهو أن. فلما صحا هرب عدي فلقق به جذيمة حتى وحملت رقاش وولدت غلاماً ربه وألبسته طوقاً من ذهب عمراً. ثم فقد الغلام، وتزعم العرب أن الجن لفته، ثم وجده رجلان أتيا به إلى جذيمة ففرح به لهما: اقترحا ما تشاءن، قال: " منادمتك ما ويقينا" وهما اللذان يضرب بهما المثل فيقال " ناني جذيمة". قالوا: وكان قد ملك الجزيرة (الجزيرة لمنطقة الشمالية من العراق والشمالية الشرقية سورية) وأعالي الفرات ومشارف الشام رجل من لفة يقال له عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي، ت بينه وبين جذيمة حروب انتصر فيها جذيمة عمرو المذكور، وكان لعمرو بنت يقال لها الزبابة نسا نائلة ( وقالوا ليلي)، فملكته بعده، وبنت على ت مدينتين متقابلتين، واحتالت على جذيمة حتى بنته في نفسها، واغتر، وقدم عليها فقتلته وأخذت أبيها، وملك بعد جذيمة عمرو، ابن أخته رقاش، ال بمساعدة عبد لخاله اسمه قصير حتى انتقم غداً في مدينتها، بان حمل إلى حصنها رجالاً

في صناديق التجار ، ثم خرجوا من الصناديق وقتلوا الزبابة وأخذوا المدينة عنوة. وأما مدينة الزبابة فقد قالوا أنها المضيقي بين الخانوقة وقرقيسيا على الفرات. وقال ابن خلدون أنها كانت تسكن على شاطئ الفرات. وقد بنت هناك قصراً ، فكانت تربع عند بطن المجاز وتصيف في تدمر. ( ص ١١٩) هكذا ذكرت زنوبيا في الروايات العربية.

إلا أن زيدان يُصنفها في كتابه المذكور فيقول:

" كانت سمراء ، بارعة الجمال ، تتنقل في العربية أو الجواد وكأنها النار نشاطاً ، تقاطيع وجهها شديدة التعبير عما يدور في نفسها من طموح وحب للعظمة وقدرة على تحقيق ذلك ، كانت قادرة على أن تظهر بمظهر الطاغية الجبار ، ولكنها كانت ، إلى ذلك ، مثلاً للحلم والعدل ، كانت تسير في طليعة مشاة جيشها مسافات طويلة وكانت تجالس القادة ، وفي المناسبات الضرورية كانت تبدو بأجمل هيبتها". أما المؤرخ اليوناني كورنيليوس Cornelius فيقول: " كان جمال زنوبيا ساحراً أخاذاً ، وكانت تعرف الآداب اليونانية التي يبدو أنها تعلمتها من لونجينوس Longinus الأديب والفيلسوف اليوناني الحمصي الأصل". ( نقولاً زيادة. عربيات.ص.٦٧)

أو دارت في الرواق الأتي ذكره، حفّت بها الفتيات من بنات الأشراف، وهي تتقدمهن وتزري بجمالهن". (ص ١١٨)

ويصفها المؤرخ الروماني بوليو Pollio بـ أنها كانت سمراء، سوداء العينين، بارعة الجمال، تتنقل من مكان إلى مكان في العربية أو على الجواد أو على الأقدام وكأنها النار نشاطاً وكانت تقاطيع وجهها شديدة التعبير عما يدور في نفسها من طموح وحب للعظمة وقدرة على تحقيق ذلك. كانت قادرة على أن تظهر بمظهر الطاغية الجبار، ولكنها كانت، إلى ذلك، مثلاً للحلم والعدل، كانت تسير في طليعة مشاة جيشها مسافات طويلة وكانت تجالس القادة ، وفي المناسبات الضرورية كانت تبدو بأجمل هيبتها". أما المؤرخ اليوناني كورنيليوس Cornelius فيقول: " كان جمال زنوبيا ساحراً أخاذاً ، وكانت تعرف الآداب اليونانية التي يبدو أنها تعلمتها من لونجينوس Longinus الأديب والفيلسوف اليوناني الحمصي الأصل". ( نقولاً زيادة. عربيات.ص.٦٧)

يصفها الدكتور حسين أحمد أمين. الحياة. ٣ أيلول ١٩٩٩) فيقول: " لقد رأها الكافة أجمل وأشجع بنات جنسها ، وهي سمراء البشرة ، ذات أسنان يضاء كالؤلؤ، وصوت قوي شجي، في عينيها السوداوين الواسعتين بريق كبريق النار، في حين تفيض أخلاقها رقة ودمامة تحببناها إلى قلوب الرعية. وأما عقلها فكعقل أحكم الرجال ، قد هذبته وصلقته بالدراسة والقراءة والبحث، فهي تجيد العربية واللاتينية واليونانية والسريانية والمصرية، قد أعدت بنفسها ولنفسها مختصراً لتاريخ شعوب الشرق، وكان أستاذها ومستشارها الفيلسوف الأثيني الشهير كاسيوس لونجينوس الذي استعدته زنوبيا ليدرس لها الأدب الإغريقي ويقرأ معها ملحمتي هوميروس ومحاورات أفلاطون، والذي نصحها فيما بعد ، حين انفردت بالحكم ، بإعلان استقلالها عن الدولة الرومانية...."

كانت تزعم أن أمها من سلالة بطالمة مصر، وأنها من نسل كليوباترا في الحسن وسعة الثقافة والإتمام بلغات عدة، فهي تفوقها في البسالة والإقدام وتختلف عنها اختلافاً عظيماً في ما يتصل بالعبء الجنسية.. ويتساءل الدكتور أمين: إنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقاً أن تلمس من المؤرخين العرب مثل ذلك الإستخفاف المشين بتلك الملكة العربية العظيمة، وذلك الإجلال والتوقير لها من جانب أعدائها الرومان ممن حاربتهن وجاهدتهن لسنوات عدة...."

يغلل الدكتور أمين تشويه صورة زنوبيا في الروايات العربية كالآتي: "إن سيرة الزبابة في كتب العرب هي الصيغة أو الرواية العربية لقصة كليوباترا، بعد نقلها وتداولها شفاهة على مدى قرون طويلة ، وأن الأصل في هذا الخلط بين المرأتين كان دعوى زنوبيا أن أمها

وكانت زنوبيا عربية في أطوارها، لم يبلغ مثلها في النساء، شجاعة ودهاء وشفة، فضلاً عن جمالها وهيبتها. وكانت سيرتها أقرب إلى سير الأبطال من سير النساء، فلم تكن تركب في الأسفار غير الخيل، ويندر أن تُحمل في الهودج. وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم، وإذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها. وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى، وبينهم وفود من ملك الفرس أو الأرمن أو غيرهما، وقد يشربون حتى يسكرون وهي لا تسكر، وكانت إذا عقدت مجلساً إعتيادياً للبحث في شؤون الدولة ، أدخلت إليها وهب اللات معها، وعليها أفضل اللباس وعلى كتفيها المشملة الفيصرية الأرجوانية وعلى رأسها التاج. ولم يقف بين يديها قادم إلا خر ساجداً، جرياً على عادة الأكاسرة، وكانت قد تشبهت بهم، فجمعت في إيوانها بعض شيوخ الضبيان ، وولكت إليهم تدبير قصورها، وإذا مشت في ساحة قصرها

خلفت زنوبيا زوجها على العرش ، فحكمت دولتها لأكثر من خمس سنوات. هذه الملكة التي أطلق عليها امبراطور روما لقب "سبتميا" وهو من أكبر ألقاب الشرف الرومانية، ساندت زوجها في حياته كأحسن امرأة محبة صالحة، وحمته مملكتها بعد مماته بشرف وشجاعة وإباء وحكمت بالعدل والكفاءة، وربت أولادها تربية حسنة، وقد استشهد ابنها وهب اللات وهو يقاتل عن عاصمته تدمر قتال الشجعان الأباة.

إن إنجازات هذه الملكة العربية وشخصيتها حدث بالمؤرخ البريطاني الشهير إدوارد جيبون إلى القول في كتابه "تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" أنه على رغم وفرة الملكات العظيمات في التاريخ الأوربي، قديمه وحديثه، فإنه يقر بأن زنوبيا ملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي ربما كانت أعظم ملكات التاريخ كله.

إن تحليل الدكتور أمين لتشويه صورة زنوبيا في الروايات العربية قد يكون صحيحاً من حيث الزيادات وغاية التشويق والإثارة، إلا أن السبب الأساسي هو الذهنية الشعبية الطقوسية التي شوهت صورة المرأة في المجتمعات العربية والتي سبقت الإسلام بقرون ، واستمرت ما بعده. وإلى هذه الذهنية يشير الأستاذ فاضل الربيعي ( مجلة الناقد، المذبحة السرية. العدد ٧٦ عام ١٩٩٤ ) فيقول: هناك مسلمة ضمنية في مجتمعاتنا تعتبر المرأة خائفة وشريرة وماكرة ، وهي لذلك موضوع للرقابة البوليسية في الجانب السري والعاطفي والجنسي من نشاطها في المجتمع، ثم أن هناك قتل هزلي جرى عبر التاريخ لصورة المرأة وشخصيتها Character Assassination، فهي تبدو إما كأضحية دينية (كالواد = مشتقة من الإله أدد) أو زانية.

سي من نسل الملكة المصرية. ويتابع: لقد كان قصاص في الجاهلية، وربما أيضاً في القرن الأول بعد الهجرة، مقام مهم لا يقل كثيراً عن مقام الشاعر في سمر الليل، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة في مجالس أهل القرى والحضر، كانوا يستمدون مصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة للتناقل بين الأمم وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث التاريخية الماثورة عن العرب أنفسهم وعن جاورهم... لم تكن ثمة، في ذلك العصر بطبيعة الحال، كتب أو أوراق قد سجلت فيها تلك القصص فيقرأ القصص منها. وإنما هي قصص قديمة يتناقلها الرواة شفاهة بيلاً بعد جيل، كل يغير منها وأحداثها وشخصياتها الحذف أو الإضافة، محتفلاً بعنصري التشويق والإثارة أكثر من احتفاله بالدقة التاريخية وصدق الرواية.